النمو الفني عند الطفل

للدكتور لطفي محمد زكي

خلاصة :

تشير الدراسات الحديثة في علم النفس وعلم الأجناس * الى أن معلمي الفن ينبغي أن يأخذوا في اعتبارهم كثيراً من العوامل التي تمكنهم من فهم الحالة المعقدة للناشئين حين يستجيبون للبيئة المحيطة بهم ، وحين يعبرون بالرسم عن هذه الاستجابات .

وهذه الدراسة التي نعرضها هنا هي بحث أجرى للحصول على درجة الدكتوراه في ميدان التربية الفنية . يهدف الى زيادة فهم المعلم لطبيعة ادراك التلاميذ . وتقويم رسومهم وفقاً لدرجة استجاباتهم التحليلية لما يرونه من الأشياء .

ويهتم هذا البحث بأن يشرح للمعلم قيمة القياس في مثل هذه الدراسات . ويبين له أن قدرات تلاميذه تختلف تبعاً للفرصة المتاحة لهم في التعلم .

مقدمة :

تستند نظريات نمو الطفل في الفن إلى أساس الدراسات الوصفية لإنتاج الأطفال . وتعتمد تلك النظريات على فرض أن النمو في تركيب محتويات الرسم يكون أكثر ارتباطاً بالعمر العقلي منه بالعمليات السلوكية المؤثرة على اتجاه الطفل ومعدل نموه . وتبعاً للنظريات التي وضعت منذ زمن قديم . كان الرسم سلوكاً بسيطاً لا يتضمن المتغيرات الكثيرة التي نعرفها الآن . كما أنها كانت تعتمد على مجموعات الأشياء التي يتذكرها الأطفال في رسومهم . وليس على قدرتهم على الرسم عندما يستجيبون لشيء يرونه .

إن البحث في تصنيف الأطفال وفقاً للعمر الزمني . ثم النظر للمتشابهات بين هؤلاء الأطفال في سن معينة قد يخفي الفروق ذات الدلالة بينهم . إننا عندما نناقش فن الأطفال مع التأكيد على رسومهم ، إنما نتحدث عن موضوع أكثر اتساعاً وشمولاً من المهمة البحتية المحددة في « اختيار رسم رجل — Draw-man-Test » (١) . وهو الاختبار الذي يعتمد قياس الذكاء فيه على مقدار ما يستوعبه الطفل من التفصيلات والعلاقات . فالطفل الذي يكون مفهومه عن « الرجل » أكمل وأصح يمكن أن يحتوي رسمه على تفصيلات أكثر من تلك التي يأتي بها الطفل ذو المفهوم الأقل عن « الرجل » . ومن ناحية

---

* يتناول علم الأجناس دراسة سلوك الناس من حيث القيم والوسائل والمعتقدات ودراسة نظم القرابة والنسب . ودراسة لغة الماضي عند جماعات منظمة من الناس .

(1) Elorece Goodernovgh. "The Intellectual Factor in children's Drawings". Doctoral dissertation, Stanford University, 1924.

اخرى يكشف هذا الاختبار عن مستوى النمو العقلي عند الطفل على أساس التفصيلات التي يحتوي عليها رسمه للرجل .

وكما يقول «د. هارس» (١) في دراسته الشاملة لنمو الطفل في الفن إن « الرسوم تعكس وجهة نظر الطفل الخاصة في بنيته وفي مزاجه نحو عالمه وفي خبرته » . وهذه العبارة يمكن أن تعدل فتقرأ : « الرسوم تعكس وجهة نظر الطفل الخاصة في بنيته ومزاجه نتيجة تفاعله مع عالمه الفريد كلما تعلم أن يعبر عنه تعبيراً رمزياً .

وسواء أكانت خبرة الطفل أم شخصيته المعينة هي التي نمت نتيجة التفاعل بين حاجته العضوية وبيئته التي عاش فيها . فإن تأثير البيئة على النمو الجسمي ينبغي أن يحسب حسابه ، لأن السن عامل له وزنه الفعال على مرّ الزمن . وهو أيضاً عامل أساسي من عوامل النمو .

علاقة اسلوب الرسم بالحالة الإدراكية للتعبير عنه :

وقد أجرت الدكتورة « لوفانو » (٢) بحثاً دقيقاً يرمي إلى دراسة رسم عدد من التلاميذ من الفصل الثاني إلى السادس في إحدى المدارس الابتدائية . وكان المطلوب من التلاميذ أن يرسم كل منهم ما يراه عندما تعرض عليهم صورة شفافة فوتغرافية بوساطة جهاز عرض (فانوس سحري) وهي صورة تمثل الباب الخارجي لمدرستهم . أي أن هذا العمل المطلوب من كل تلميذ قد تطلب استخدام عرض مؤثر بصري لا يعتمد على الذاكرة وحدها . ثم عرضت رسوم التلاميذ على فريق من الحكام المدربين الذين قوّموها وفحصوها تبعاً لدرجة استجابة التلميذ التحليلية لما يراه . أو لدرجة شمول ما يراه من حيث الحجم . والقيمة ، والتفاصيل . والعلاقات بين المساحات . وفصل الشكل عن الأرضية .

ويبين الشكل (١) من الرسوم الآتية استجابات التلاميذ للصورة الفوتغرافية لباب مدرستهم الخارجي . أما الأشكال من (٢ – ٦) فهي أمثلة لاستجابات التلاميذ في كل صف دراسي ، وأما الشكل (٧) فيبين هذه المعلومات في صورة إحصائية .

تحليل :

ومن الأشكال السابقة نستطيع القول أن هناك دليلاً على تقدم التلاميذ كلما انتقلوا من فرقة إلى فرقة أعلى . ويتضح لنا ذلك إذا نظرنا الى «المتوسط الحسابي للدرجات Mean Score » . وكذلك نرى دليلاً آخر على النمو إذا نظرنا إلى أعلى درجات كل فرقة . ولكننا عندما ننظر إلى مدى الدرجات في كل فرقة وإلى مستواها يتضح أن لدى كل معلم في هذه الصفوف كثيراً من التلاميذ الذين لا تتغير قدرتهم على الاستجابة إلى مؤثر واحد عندما يسجلون ما يرونه . وأكثر من ذلك . نجد أن الاختلاف والتنوع يكونان في الفرقة العليا أكبر منهما في الفرق الدنيا . وواضح أيضاً أنه لا ارتباط ذا دلالة إحصائية

الأشكال والرسوم المقدمة في هذا الفصل مأخوذة عن د . « لوفانو » .

(1) Dale B. Harris, Children's Drawings as Measures of Intellectual Maturity (New York: Harcourt Brace & World, Inc. 1963) P. 133

(2) Jessie J. Lovano. The Relationship of graphic Style and Mode of Perception to Graphic Expression. Ph.D. dissertation, University of Oregon, 1969.

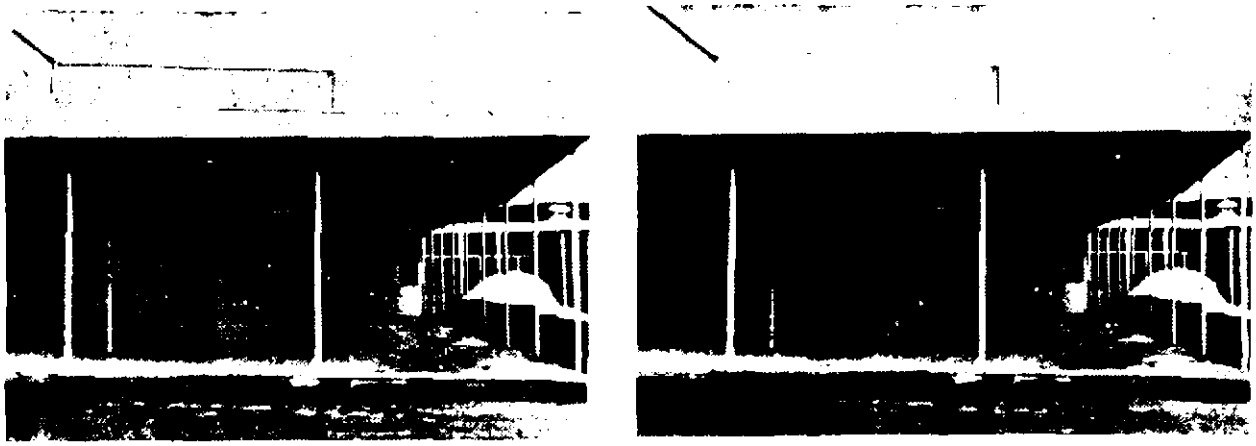

شكل (١) مدخل المدرسة .

شكل (٢) من استجابات تلاميذ الصف الثاني

شكل (٣) من استجابات تلاميذ الصف الثالث .

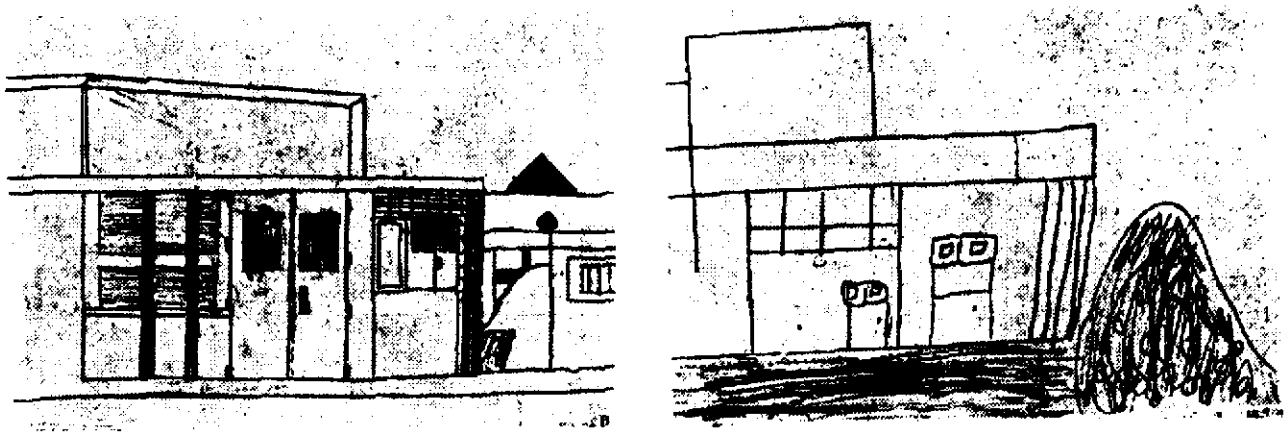

شكل (٤) من استجابات تلاميذ الصف الرابع

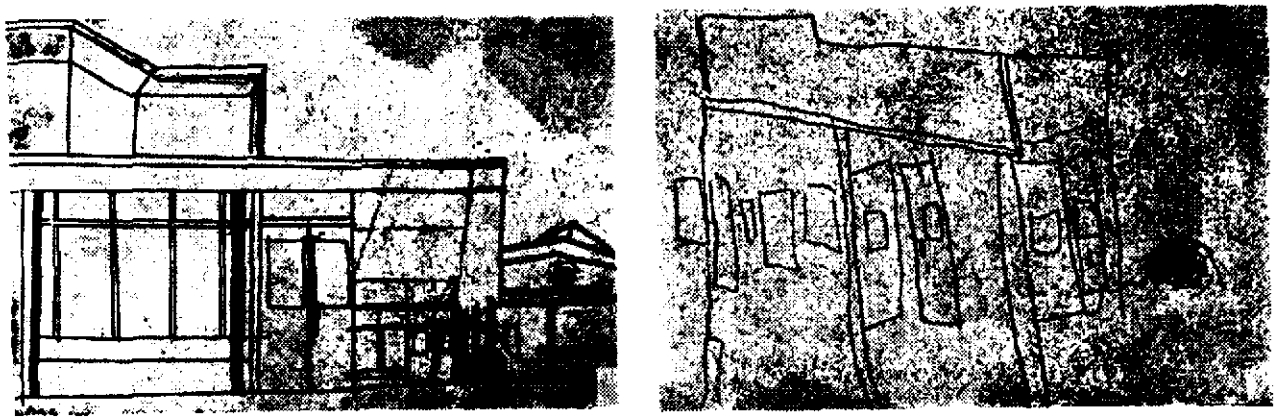

شكل (٥) من استجابات تلاميذ الصف الخامس

شكل (٦) من استجابات تلاميذ الصف السادس

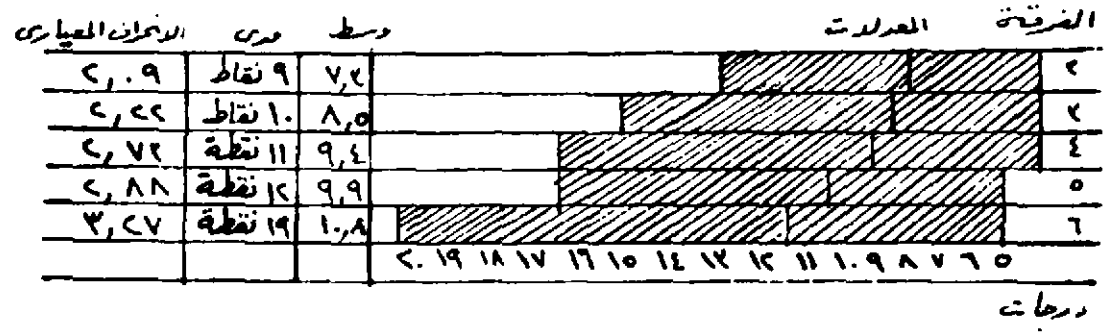

شكل (٧) مدى الاستجابة إلى مؤثر واحد (عن د . لوفانو)

بين العمر الزمني والدرجات في هذه الاستجابة للرسم عند مستوى أية فرقة . فقد كان مقدار معامل ارتباط هو (٤٠٥و) وهو المعامل الذي وجد عندما جمعت كل الصفوف معاً .

العوامل التي تؤثر في الإنتاج الفني للتلميذ :

لكي ندرك نمو الطفل ينبغي أن نمعن النظر إلى رسمه حتى نستنتج العوامل الخاصة المأخوذة من « المعدلات المبنية على السن — age-based norms » . ونرى كيف تؤثر العوامل التالية في إنتاجه :

١ — الطريقة التي توجه بها الثقافة انتباه التلميذ .

٢ — أسلوبه المعرفي في تناول المدركات ، أينحو إلى التحليل أم إلى الشمول ؟ إلى التأمل أم إلى الاندفاع ؟

٣ — الطرق التي تعلم بها التلميذ ربط نفسه بالفراغ ذى الأبعاد الثلاثة .

٤ — تطوره في الثبات الإدراكي ومدى اعتماده عليه في رؤية الأشياء كما يعرفها ، أو كما تظهر في الفراغ المادي ، أو في هاتين الحالتين كليتهما .

٥ — الطرق التي يتبعها البيت والبيئة المدرسية لتنمية صفات الابتكار والإبداع من حيث الطلاقة ، والمرونة ، والأصالة ، واتجاهات اللعب ، وحرية التكيف .

٦ — المفاهيم التي تعلمها التلميذ والدرجة التي اعتاد بها ربط المدركات البصرية بتلك المفاهيم .

٧ — مدركات التلميذ التي يعي بها ، وقدرته على معالجة الأجسام في الفراغ وتحليل علاقاتها .

٨ — مهارات الكبار في المدركات والمفاهيم التي تلقى منها التلميذ تعلمه السابق .

٩ — ثراء البيئة المرئية أو فقرها .

١٠ — ماضي خبرات التلميذ في الفن ، سواء أكانت عاملاً من عوامل الدعم والتقويم ، أم كانت عاملاً من عوامل التثبيط والاحباط .

١١ – تكيف التلميذ مع البيئة المدرسية .

١٢ – اتجاهات التلميذ نحو النشاطات الفنية .

النواحي التطبيقية :

إن الدراسات الوصفية لا تقدم لنا إلا القليل بالنسبة لمدى ما يتوقعه الإنسان من صف دراسي ما . وإنما هي توضح عادة السلوك التقليدي لسن معينة ، غير أن المعلمين يحتاجون إلى أن يعرفوا الدرجات التي بنى عليها المعدل ، ومداها ، وكيفية تجمع الدرجات حول الوسط .

معنى المتوسطات :

وتبعاً لعلم النفس التربوي ، نرى أن تلاميذ الفرقة الدراسية قد يختلفون في عدة نواح . فإذا كنت تقوّم رسوم أطفال من أعمار متماثلة مستخدماً قياساً يعتمد على السن ، فيجب أن تتوقع أمثلة متعددة . وأن تجد أكثر من معيار واحد ممثل . دعنا نفترض أنك معلم للفرقة الرابعة . وتلاميذك يأتون من طبقات اجتماعية مختلفة ، وخبراتهم في الفن متنوعة ، وأن بعضهم كان يعلمهم معلمون صارمون ، وبعضهم الآخر كان يعلمهم معلمون يتساهلون ، وأن بعضهم يعتقدون أن النشاط الفني شائق للغاية . وأن بعضهم الآخر يرهبون المحاولة لأسباب متعددة . وقد ترى أنت عوامل أخرى كثيرة مغايرة . فإذا كلفت جميع تلاميذك القيام برسم أو تصوير معين ، فستكون أمامك فرصة لترى كيف يكونون متماثلين أو مختلفين في هذا اليوم المعين الذي كلفتهم فيه القيام بالرسم أو التصوير . قد تستخدم أحد المقاييس الذي يعتمد على العمر الزمني لترى كيف يعمل تلاميذك ، وتصنفهم تبعاً لشكل (٨) . اثنان منهم يؤديان عملهما مثل تلاميذ الصف الثاني ، وثلاثة يؤدونه مثل تلاميذ الصف الثالث . وأربعة يؤدونه مثل تلاميذ الصف الرابع ، وأربعة يؤدونه مثل تلاميذ الصف الخامس ، وثلاثة يؤدونه مثل تلاميذ الصف السادس ، واثنان يؤديانه مثل تلاميذ الصف السابع .

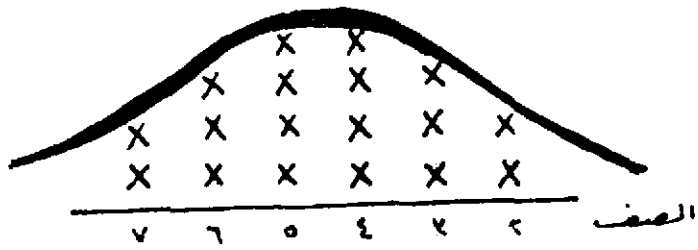

شكل (٨) توزيع اعتدالي

فإذا رسمت خطاً فوق توزيع هذه الدرجات فترى الشكل ناقوسياً أو توزيعياً اعتدالياً ، متجمعاً في ذلك الصف الدراسي حول الوسط الحسابي . وسيظهر لك أن التوزيع الاعتدالي يحدث عادة عندما نختبر عينة متباينة من سلوك الأفراد الذين لديهم فرص متنوعة للتعلم أو النمو .

وقد ترى أحياناً أن صفك الدراسيّ تتمركز فيه الدرجات حول المتوسط الحسابي ولكن يظهر شكل الناقوس فيه كما في شكل (٩) . ومعنى ذلك أن التلاميذ في فرقتك متشابهون ، وأن مدى درجاتهم من أكبرها إلى أصغرها قليل .

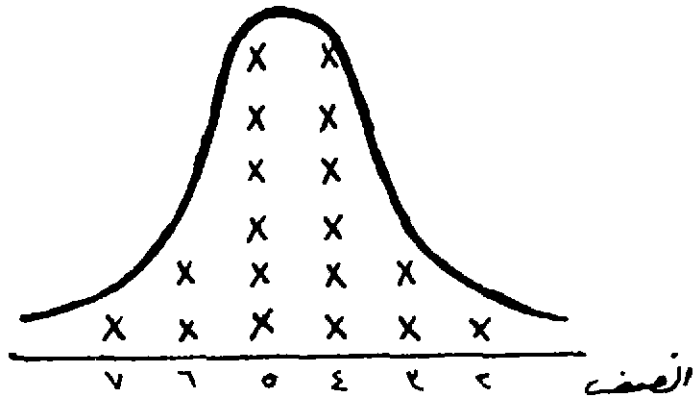

شكل (٩) درجات تتمركز حول المركز

وعلى العكس من ذلك قد تحصل على شكل ناقوس مفلطح مثل شكل (١٠) وهو يعني أن تلاميذك مختلفون تماماً وأن مدى درجاتهم واسع أكثر من المعتاد .

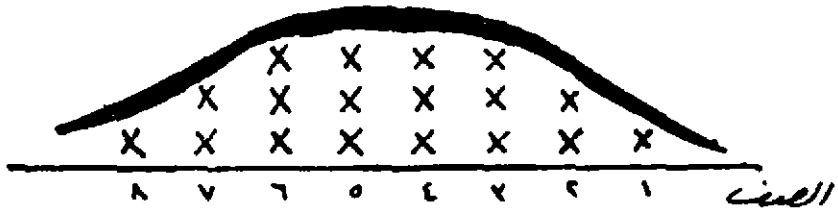

شكل (١٠) تشتت الدرجات

وقد يكون لهذه المجموعات المختلفة نفس «المتوسط الحسابي للدرجات—mean score» . ومعنى هذا ، أنه إذا جمعت درجات الفرق المختلفة معاً ، وقسم حاصل الجمع على عدد التلاميذ فإننا نحصل على الجواب نفسه . غير أن مدى الدرجات وكيفية تشتتها حول الوسط الحسابي يختلفان تماماً فتوزيع الدرجات وتشتتها يدلان على اختلافات كبيرة في الصف الدراسي . وعليك أن تستنتج لماذا تختلف الدرجات كل هذا الاختلاف . ثم عليك أيضاً أن تبحث عن طرق لاثارة جميع التلاميذ ودفعهم لكي يصبحوا مندمجين في العملية الفنية .

وإذا أردنا أن نختبر جميع مظاهر السلوك التي يستخدمها التلاميذ في الفن ، مثل الإدراك ، والرمزية ، والتصميم ، والإبداع ، وحل المشكلات ، والتفهم ، سوف نجد مدى متشابهاً في كل مظهر

منها ، ونجد أن أي صف دراسي قد يختلف عن الصفوف الأخرى في كل مظهر منها أو في بعضها . كذلك ربما تتشكل المنحنيات البيانية تبعاً لتلك المظهر . وهذا معناه ، أن درجات التلميذ ربما تتجمع تحت المتوسط الحسابي أو فوقه إذا قورنت بالمتوسط الحسابي الذي نشأ من تجميع مراحل العمر الزمني . ومن ثم كان ذلك مهماً للمعلمين لكي تزداد معرفتهم بمتوسطات أي قياس ، فهم محتاجون إلى أن يروا كيف يختلف التلاميذ في المجموعة الكبيرة حول المتوسط الحسابي وعلى أي نحو يحدث ذلك . ثم لكي يتمكنوا من أن يروا كيف يتفاوت تلاميذهم حول المتوسط الحسابي في فرقهم .

وإذا نظر المعلم إلى معدل النمو مجزءاً بالنسبة لمظاهر السلوك المتضمنة في النمو الفني ، يجد أن تلميذاً ما عال في بعضها ومنخفض في بعضها الآخر . وقلما يكون التلميذ عالياً أو منخفضاً أو متوسط في كل تلك المظاهر . إن هذه القدرات كلها تختلف تبعاً للفرصة المتاحة للتلميذ في التعليم ، كما اتضح من الدراسات التي تناولت أثر « الثقافة المشتركة "Cross culture" » في التلاميذ . أما قدرة التلميذ الراهنة فتعني فقط أين يقف الآن ، وتعطينا القليل من المعلومات عن حاجاته أو عن الكيفية التي تنمو بها قدرته .